المحاضرة الرابعة

المطلب التاسع : في التربية الأدبية

لقد اختلفت آراء العلماء في الإنسان من حيث صفاته الطبيعية؛ فذهب فريق منهم إلى أن أصول الآداب مودعة في النفس، وقال غيره "النفس أمارة بالسوء"، وقال الشاعر العربي:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد　　ذا عفـــة فلعلـــه لا يظلـــم

وذهب فريق إلى أن الولد يولد إما خيراً أو شريراً، أي لا تأثير للتربية عليه وعلى ذلك قالوا الطبع يغلب التطبع. وزعم غيره أن الطفل يولد على استعداد إما للخير أو للشر وأنه يميل إلى الوجه الذي يريده المربي، وعلى ذلك لا يكون للإنسان شيء من الصفات الغريزية بل كل ما فيه من الأخلاق مكتسب وبعبارة أخرى أنه صنيعة التربية.

وبديهي أن هذا الاختلاف في آراء الباحثين قد نشأ عن تباين الصفات في البشر فهي بينما تسمو في بعضهم إلى ذروة الفضائل والكمالات حتى ليداني بها الإنسان مقام الملائكة إذا بها تسقط بغيرهم إلى حضيض المفاسد والنقائص بحيث يصبح الإنسان شرا من الوحوش الضارية والأفاعي السامة، وبينما هي تصلح أحيانا بفعل التربية حتى تبلغ حداً ما وراءه زيادة في الفضل والأدب إذا بها تعصى المربي وتنشأ على عكس ما يريده لها من الخير والصلاح حالة كونها قد تستقيم بالفطرة

أحيانا فتجعل أصحابها في عداد أهل الفضل والنبل وإن لم ينالوا أقل نصيب من التربية والتعليم..

فما هو سبب الاختلاف العظيم في طبيعة هذا المخلوق العجيب، وهل يختلف حظه في الوجود فيخلق إما خيرا أو شريرا، وهو بعد طفل لم يأت حسنة يستحق لأجلها المكافأة، ولم يقترف إثما يستوجب لأجله العقاب وهل يعقل أن تكون صفاته تارة مرنة تتكيف بالشكل الذي يريده المربي وتارة صلبة لا يؤثر بها شيء من تعاليمه وإرشاداته حالة كونه واحدا في التركيب. كلا، وإنما هناك سبب مستقر في النفس لازم لتنازع البقاء ألا وهو حب الذات؛ فحب الذات ناموس طبيعي تخضع لأحكامه المخلوقات كافة في حفظ كيانها، وعلى ذلك فكل عمل يأتيه الناس على اختلاف مراتبهم وأعماره الطرق إنما يعود إلى ما يرون فيه مصلحة لهم وفائدة في حفظ ذواتهم.

غير أن الطرق التي يتخذونها لبلوغ غايتهم هي التي تختلف باختلاف مبادئهم وأميالهم، فالعالم الفاضل الذي ينفق سني حياته في سبيل ترقية بني جنسه وإعلاء شأنهم، والحسود الجاهل الذي يعمل على الحط من منزلة ذوي العلم والفضل، والطبيب الذي يعمل الخير في دفع الأسقام ومعالجة الأمراض، والأثيم الذي يقترف الجرائم بسرقة الأموال وقتل النفوس.. جميع هؤلاء يعملون لخدمة مصلحتهم مدفوعين بعامل حب الذات وإنما تختلف الطرق، والغايات التي يتوخاها كل منهم لخدمة مصلحته فالسارق لا يسرق لمجرد رغبته في أذية الآخرين أو لأنه خلق

شريرا بل هو يسرق للانتفاع بما يحوزه من السرقة حفظا لكيانه، وإنما يسلك تلك الخطة التي لا يسلكها الفاضل لأنه لم يهذب نظيره ولا توفرت له وسائط التربية الصحيحة كما توفرت لذلك.

وعليه فتكون التربية هي الواسطة الوحيدة الفعالة في تدميث أخلاق الولد وتقويم سيرته والميل به إلى الخير والصلاح، ولكن ذلك لا يدل دلالة قاطعة على أن في التربية العلاج الفعال الذي لا يكذب في حال من الأحوال أو أن التربية توجد في الولد ما هو غير موجود فيه بالفطرة فلعمري أن بعض الحلال المستهجنة قد تكون موروثة من الآباء بل من الحدود فيتعذر إصلاحها حتى لا أقول يستحيل بعضها وان لم يكن موروثا فقد يحول دون إصلاحه حائل طبيعي من بنية الولد أو من مزاجه، وكثيرا ما نشاهد أولاداً تتساوى شروط تربيتهم وتتفاوت مع ذلك أخلاقهم لتلك العلة كما أننا نرى كثيرين قد خصوا بمواهب سامية دون آخرين حتى أنهم على قلة وسائط التربية أحيانا يفوقون سواهم ممن ربي تربية حسنة، على أنه مهما تأصلت المساوي الموروثة في الإنسان فإنها تضعف يشمل التربية القوية شيئا فشيئا حتى تتلاشى أخيرا إن لم يكن في عهد الفرد الواحد فعلي توالي الأحقاب والأزمان.

المطلب العاشر: في تقويم الأخلاق

تقدم لي القول أن تربية الصغار قائمة على ركنين مهمين أحدهما السلطان بالإضافة إلى المربي وثانيهما الطاعة بالإضافة إلى الولد إلا أن السلطان ينبغي أن يكون مقترنا بالرفق في حزم، أي ميزها عن العنف في

غير موضعه وعن التساهل والتسامح في غير موضعهما كما أن الطاعة ينبغي أن تكون ناشئة عن ثقة الولد بمربيه وتيقنه بأنه يحبه وبأنه لا يريد بما يأمره به سوى نجاحه وفائدته لا مجرد التحكم والاستبداد.

ولما كانت التربية في الصغر تتعلق بالأم – كما سبقت الإشارة إلى ذلك – فعليها أن تجتهد بحكمتها في امتلاك قياد ولدها بالتودد والملاطفة فإذا طلب شيئا لا يوافق إعطاءه إياه تمنعه عنه منعا باتا ولو مهما بكى وألح في طلبه فيفهم بعد ذلك أنه لا فائدة من البكاء، ولا مندوحة من الطاعة فيتعود الامتثال لإرادة والدته، وإذا حاول الولد أن يمس شيئا نهته أمه عنه قبلا فلا يوافق أن تخبئه عنه خوفا من بكائه لأنها بذلك تجعله يأبى الامتناع عن مسك أي شيء ما لم يبعد عنه، والأفضل في مثل هذه الحال أن تدع الشيء في مكانه وتوجب على ابنها عدم الدنو منه مقنعة إياه بوجوب الطاعة والامتثال لإرادتها، ومتى استمرت الأم على هذه المعاملة أصبح ذهن الولد كالشمع طواعية في يدها وأمكنها أن تغرس فيه المبادئ الصحيحة والصفات الحسنة التي تتوخاها.

ولا يستنتج من ذلك أن تضغط على عقله وتقيد أفكاره إلى حد أن تنزع استقلاله وتقتل كل مميزاته لأنه بذلك يشب على ضعف في عقله وذل في نفسه وانقياد لرأي غيره بدون استعمال فكره، والأحرى أن تعوده الاعتماد على أفكاره في تفهم الأشياء بحيث تقوي فيه قوة التصور والاستنتاج. وكما تضطرها قيادة ولدها إلى أن تكون حاكمة متسلطة على إرادته كذلك توجب عليها أن تكون بمنزلة الصديقة له فتخص جانبا من

وقتها لمباسطته وتسليته تارة برواية القصص المفيدة التي يميل إليها والتي تكسبه أدبا، وطور تحثه على الأعمال التي توافق سنة وأمياله وحينا بتفهيمه أسرار الكائنات وغرائب أفعالها وكذلك سائر الأشياء التي تقع تحت بصره أو تستدعي انتباهه للسؤال عنها، وبذلك تمكن فيه حب الاستطلاع وتجعل فيه ميلا واستعدادا لفهم العلوم الطبيعية وتسهل لديه درسها بعدئذ في الكتب فضلا عن إنها بذلك تشر به محبتها وتجعله يستعذب معاشرتها ويستلذ أحاديثها فوق ما يناله من الثقة بها والاعتقاد بعظيم عنايتها وحنوها بعكس ما لو اقتصرت على تأييد سلطتها عليه بالقسوة والعنف والزجر والضرب فإنه ينفر منها ويطلب الابتعاد عنها ولا يصدق أن يتيسر له الفرار من وجهها والإسراع إلى خادماته وأصدقائه وتكون نتيجة ذلك تربيته على الخوف وسفالة الأخلاق؛ فالكراهية والبغض لوالديه والمكر والرياء والمخادعة والغدر إلى غير ذلك من الصفات التي كثيرا ما تؤدي بالأولاد إلى الفتك بوالديهم متى اشتد ساعدهم ووجدوا بابا للتخلص منهم لأن النفس لا تذل إلا إلى حين ولا تصبر على الضيم إلا ريثما تجد واسطة ومقدرة على دفعه

ورب معترضة تقول أننا نحن الشرقيات ليس أحن منا قلبا على الأولاد ولا أكثر منا حرصا على هنائهم وسرورهم.. أجل إننا كذلك، ولكن متى وكيف؟

متى اقترف الولد ذنباً ورام والده تأديبه تظهر الأم حينئذ حبها وحنوها بأن تضم الولد بين ذراعيها وتحول دون إتمام قصد أبيهِ، وكذلك

متى رأته يبكي لجرح طفيف أصابه وهو يلعب بسكين كانت قد نبهته مرارا عن لمسه أو متى رأته عائدا من الكتاب حانقا على معلمه لأنهُ عاقبهُ على سوء تصرفهِ وقلة اجتهاده فإنها لا تلبث في مثل هذه الأحوال أن تقبله وتلاطفه وتسترضيه إلى أن يذهب ما به من الغيظ والكدر. أفلا يدعى عملها هذا حبا؟ أجل إنه كذلك ولكن يا له من حرب البغض أفضل منه، فإنها كانت تحسن صنعا لو وبختته بصرامة وقسوة وجفته حينا لتؤكد له أنه قد أخطأ وأنه يستوجب أكثر مما ناله من العقاب. هذا هو الحب الحقيقي الذي يثمر ثمارا جيدة في الولد، أما الملاطفة التي تضعها الأم في غير موضعها من ابنها فإنها وإن كفكفت دموعه في الحال فإنها تقضي على آدابه في المستقبل فضلا عن أنها تبعث به على الاستخفاف بأمه والتمرد عليها..

ولكي تجمع الأم بين محبة ولدها واحترامه لها يجب أن تسلك أمامه مسلك الأدب والتعقل والصدق فإن رامت توبيخه على ذنب أتاه فبالتأني والتؤدة لا بالسخط والصياح والدعاء عليه؛ فإن ذلك يحط منزلتها في عينه، ومن الواجب أن تعدل في معاملة أولادها بحيث لا توجد مجالا بينهم للتحاسد والتباغض، وأن لا تحجب عنهم ما يحتاجون إليه فتعلمهم بذلك السرقة.

ويجدر بالأم أن تنبه في ولدها عاطفة الشفقة على المصابين والمعوزين وبذل المعونة لهم والسعي فيما يؤول إلى سد حاجتهم، مع الامتناع عن تعذيب الإنسان والحيوان والعفو عند المقدرة فإذا ما رامت

أن تعطي درهما لفقير فلتكلف ابنها أو بنتها أن ينوب عنها بهذا الواجب، وهكذا عليها أن تنمي فيه كل ميل صالح وتردعه عن كل أمر قبيح فتربي فيه عادة التلطف والإباء وكبر النفس واستقباح الخدعة والكذب والاستبداد وكل خلة ذميمة تحط بشأن الإنسان.

ويحسن بالأم أيضا أن تفرض على أولادها صبيان وبنات أن يقوموا بأشغال منزلية خفيفة كنقل آنية غير قابلة للكسر من غرفة إلى أخرى أو ترتيب بعض المفروشات إلى غير ذلك من الأعمال التي تلائم سنهم، فإن الولد ميال من طبعه لدوام الحركة فإذا لم يجد عملا مفيدا يعمله يعمد إلى الضار منه كالتخريب والتكسير لأن ذلك سهل عليه لا يستوجب معرفة وتعليم، أما إذا تمرن الأولاد على الأعمال المفيدة فإنهم يشعرون بسرور وارتياح لإتمامها ولاسيما إذا عينت الأم جوائز لأكثرهم إتقانا للأعمال فإنهم يقبلون بنشاط، وبذلك يشبون على حب العمل ويجتهدون في أن يكونوا مفيدين لأنفسهم ولغيرهم.

تروني قد قصرت أكثر بحثي في التربية على الأم دون الأب، وذلك ليس لأنه خال من المسؤولية في تهذيب أولاده بل بالعكس فإن منزلة الأب والأم واحدة من الحب للأولاد والاهتمام فيما يؤول خيره وفائدتهم ولكن واجبات الأب المعيشية تقضي عليه بعدم ملازمة الأولاد بعكس الأم فإنها تلازمهم دائما وباستطاعتها وحدها تربيتهم إذا كانت حكيمة، وفي هذه الحال لا يبقى للأب من واجب سوى ترك الحرية المطلقة لزوجته في تربيتهم واحترامها أمامهم لتكون كلمتها مسموعة

لديهم وإرادتها مطاعة منهم.. أما إذا كانت جاهلة بقوانين التربية فمن واجبات الأب أن يقوم مقامها في إرشادهم وتهذيبهم على قدر ما تسمح له أوقاته وتنبيه الأم إلى واجباتها من نحوه بلطف وفي غياب الأولاد.

على أنه مهما كان الوالدان عارفين بقوانين التربية فلا بد لهما من الاستعانة بالدين وتفهيم الولد أن فوق سلطتها سلطة أعلى وأسمى تنفذ إلى أعماق القلوب وتدرك من مكنوناتها ما يستطيع إخفاءه عن أبويه، وبذلك تتولد الفضائل وتنمو في نفسه ويصبح للتربية سلطة أقوى في تجنب الشرور والمعاصي وتقويم المبادئ المعوجة، ومتى اقترنت التربية الصحيحة بالتقوى تغلبت الفضيلة في الولد وأصبح قادرا على محاربة الأميال الشريرة ودفع سهام الحزن والتعصب واليأس عن فؤاده، فضلا عما يحرزه من تثقيف العقل وتنوير الذهن الذي يعلم بواسطته فائدة الأديان ووجوب احترامها؛ فيتخلص بذلك من قيود التعصب التي تهدده في حياته المستقبلة سواء في المدرسة أو في العالم.